اقتراب من عرين البلاغة (دلائل الإعجاز)؛ قراءة في سيرة المؤلف وقضايا المؤلف.

Approaching the den of rhetoric“Dala’il al-I’jaz” A study of the author’s biography and issues of the book.

أ. د عمر بوقمرة.

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

Dr.bouguemra@gmail.com

تاريخ الإرسال:2023/10/28	تاريخ القبول:2023/11/12	تاريخ النشر: 2024/01/04

ملخص: تهدف هذه المقالة إلى كشف كل الملابسات التداولية التي تلبست بعملية تأليف كتاب دلائل الإعجاز لصاحبه عبد القاهر الجرجاني؛ الذي حوى علمين لما بينهما من ارتباط وثيق ألا وهما : نظرية النظم، وعلم البلاغة؛ ويمكن أن يضاف لهما علم ثالث ألا وهو معاني النحو كما يشي به عنوان الكتاب. إذ ما يزال هذا الكتاب مصدر تلق وقلق لطلبة العلم في تخصص البلاغة العربية؛ مصدر تلق لأنه مؤلف لا يستغني عنه طالب علم مجد، ومصدر قلق لما حف به من استغلاق في الفهم والاستيعاب، لذلك آثرث هذا البحث لما استقر في روعي أنه سيكون إضافة نوعية لطلبة العلم في هذا التخصص، خاصة وقد عزف البحثة عن مثل هذه الدراسات ظنا منهم أنها غير مجدية؛ وتلك غشاوة البنيوية المتطرفة التي أزهقت روح المعنى ومهدت للتفكيكية العبثية. وقد وظفت في البحث المنهجين التاريخي والوصفي لمناسبتهما لطبيعة البحث.

الكلمات المفتاحية: عبد القاهر الجرجاني؛ دلائل الإعجاز؛ البلاغة العربية؛ النظم؛ النشأة؛ التطور.

Summary: This article aims to reveal all the contextual circumstances that accompanied the process of writing the book "Dala'il al-I'jaz" by its author, Abdul Qaher al-Jurjani. Which contained two sciences because of their close connection: the theory of systems and the science of rhetoric. A third science can be added to them, which is the meanings of grammar, as the title of the book indicates. This book is still a source of interest and concern for students of Arabic rhetoric. It is a source of interest because it is an indispensable book for a diligent student of science, and a source of concern due to the lack of understanding and comprehension that surrounds it. Therefore, I chose this research because it settled in my mind that it would be a qualitative addition to students of science in this field, especially since researchers have turned away from such studies, thinking that they are useless. This is the veil of extreme structuralism that has destroyed the spirit of meaning and paved the way for absurd deconstruction. The research has followed both historical and descriptive approaches as they suit the nature of the research.

Keywords: Abdul Qahir Al-Jarjani; Dala'il al-I'jaz; Arabic rhetoric; systems; beginning of origin; Development.

– مقدمة:

قد يظن بعض الناس أن تخصيص فصل بأكمله للبحث في حياة عالم ما ، يعد ضربا من الإطالة فيما لا فائدة فيه ، أو حشوا من لغو الكلام الذي يقصد من ورائه تكثير صفحات البحث و الهروب من لب إشكاليته .

وقد يكون هذا مستهجنا عند الوصفيين الذين يزعمون أنه يجب على الباحث أن يقبر المؤلف قبل الشروع في دراسة المؤلف ،وهذا المنهج قد يصلح في نظري في العلوم غير الإنسانية كالرياضيات و الفيزياء و الهندسة أما في علوم اللغة و آدابها فمن الصعب ادعاء الوصفية الكاملة ، فالباحث التاريخي ينطلق من نفسية المؤلف ليحلل النص ، و الباحث الوصفي ينطلق من النص ليحلل نفسية المؤلف ، فصار الباحثان وجهين لعملة واحدة.

ففي بحث نشأة البلاغة و تطورها، ينبغي أن نربط بين هذه المباحث وبين الحركات الأدبية المسايرة لها، فلكل حركة أدبية مميزات وخصائص تعيننا على النفوذ إلى حقائق البحث ، تقول عائشة حسين فريد : " ويحسن دائما قي بحث البلاغة العربية أن نربط بين المباحث البلاغية والحركات الأدبية ، فمثلا يحتدم منذ القرن الرابع الهجري بحث السرقات الشعرية ، وقد يفسر ذلك بأن ضربا من الجمود أخذ يسري في الشعر العربي ، والشعراء لم يحاولوا التفكير في موضوعات جديدة ، بل ظلوا يرددون ويعيدون في الموضوعات المطروقة ... وعلى هدا النحو يحسن أن يفسر التطور التاريخي للبلاغة العربية بالتطور الأدبي ، إذ مازالت البلاغة و الأدب يرتبطان ارتباطا وثيقا حتى انتهيا إلى الجمود والجفاف الشديد ".[1]

ويشتد الأمر إذا كانت الآراء والأفكار والأشعار تصدر عن عقيدة أو فكرة فلسفية ما ، تقول عائشة حسين فريد : " وتلزمنا دقة التفسير في البحوث التاريخية للنحو والبلاغة والأدب ومذاهبه الفنية في بحوث الشعراء، وبخاصة إذا صدروا في أشعارهم عن عقائد أو أفكار فلسفية واعتزالية و غيرها " .[2]

ولهذه الأسباب سوف أحاول التطرق إلى الجوانب التالية من حياة المؤلف.

[1] عائشة حسين فريد : منهج البحث البلاغي، دار قباء للطباعة والنشر و التوزيع ، القاهرة،ط أولى ، 1977م ، ص 23 . 24 .
[2] المرجع نفسه، ص27.

1- مولده ونسبــه :

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، لم تعرف سنة ولادته ولا أحوال أسرته ، سوى أنه كان من أسرة فقيرة معدومة.

وقد رجح بعض الدارسين أنه ولد عام أربعمائة للهجرة ، لأن أغلب من ترجم له ذكر أن له شيخا واحدا تتلمذ على يده ، وهو الإمام النحوي أبو الحسين محمد بن الحسين بن عبد الوارث، وهو ابن أخت أبي علي الفارسي ، وقد توفي هذا الأخير سنة (421 هـ) ، وإذا كان عبد القاهر قد عرف بالفطنة والذكاء وتوقد الذهن فمن الصعب الإلمام بتلك المادة العلمية دون العشرين من عمره ، كان معنى ذلك أنه ولد حوالي سنة (400هـ) وأنه عمّر ما يزيد عن السبعين عاما ، قضاها كلها عطاء في البحث والتأليف[1]

وهدا الترجيح من عبد العاطي غريب علي علام مقبول ، إلا أنه يمكن أن يعترض عليه بأنه إذا كان الجرجاني ولد سنة (400 هـ) ، وأنه من الصعب الإحاطة بتلك العلوم التي أتقنها الجرجاني دون العشرين ، معنى هذا أن الجرجاني لم يتتلمذ إلا سنة واحدة وعلى يد شيخ واحد ، وهذا الشيخ لم يشتهر إلا بقرابته من خاله أبي علي الفارسي.

ولد بمدينة جر جان ، وهي مدينة أعجمية مشهورة تقع بين طبرستان و خراسان، وكانت جر جان حاضرة هذا الإقليم ، وقد فتحت هذه المدينة على عهد عمر بن الخطاب . رضي الله عنه . سنة 18 هـ .[2]

وعرف أهلها بحسن الذوق ورهافة الحس ، يقول زكي مبارك واصفا جر جان :"وجر جان هذه مدينة مشهورة بين طبرستان و خراسان كما ذكر ياقوت ، وقد خرج منها عدد من الأدباء و العلماء والفقهاء والمحدثين

[1] ينظر: عبد العاطي غريب علي علام : البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين : عبد القاهر الجرجاني ، وابن سنان الخفاجي ، دار الجليل ،بيروت ، ط أولى ، 1993 ، ص28.

[2] ينظر : صالح بلعيد : التراكيب النحوية و سياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الساحة المركزية ، بن عكنون ، الجزائر، سنة 1994 ، ص8 .

...ونرى أن لوفرة ما كان بجر جان من الفواكه ، ولشهرتها بالخمر تأثيرا فيما كان لأهلها من رقة الحس ودقة الذوق ".[3] توفي سنة إحدى وسبعين و أربعمائة . رحمه الله .[4]

[3] زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، د ت ، ج 2 ، ص 8 .

[4] محمد بن شاكر الكتبي : فوات الوفيات والدليل عليها ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د ت ، ص 369. 370 .

2– أسرتــه :

نشأ عبد القاهر في أسرة فارسية فقيرة ، وقد حال فقرها دون إرسال ولدها لطلب العلم خارج مسقط رأسه جر جان ، إلا أنه يرجح أنه كان من أسرة مثقفة، تولي عناية بالغة لطلب العلم وتحصيله ، وإلا فإن اجتماع الفقر واللامبالاة غالبا ما يؤديان إلى طريق غير طريق العلم وأهله.

3 – نشأتــه:

يجمع كل من ترجم لعبد القاهر الجرجاني أنه قضى كل حياته في موطنه الأصلي جر جان ، ولم يخرج منها ، يقول إميل بديع يعقوب في ترجمته :" كان من أئمة اللغة والنحو ، أخذ النحو عن أبي الحسين محمد بن الحسين بن أخت أبي علي الفارسي ، ولم يأخذ عن غيره لأنه لم يخرج من بلده "[1].

ويقول عبد العاطي غريب علي علام :" وأسرته فارسية ، ويبدو أنها كانت رقيقة الحال، لم تجد فضلة من المال تنفقها على ابنها كي يستطيع أن يتنقل في البلاد، يأخذ العلم من أعلامه فظل في جر جان لا يبرحها "[2].ويمكن أن تكون هناك أسباب أخرى جعلت الجرجاني لا يبرح موطنه للرحلة في طلب العلم منها :

– وفرة العلماء في بلده جر جان التي كانت حاضرة لشتى العلوم والفنون والثقافات المختلفة، مما أغناه عن الرحلة .

– الأوضاع السياسية السائدة آنذاك ، حيث تعاقب على الحكم مماليك أسسوا دويلات مثل الدولة الزيارية ، ثم الغزنوية ثم السلجوقية ، وكان التناحر قائما على أشده بين المماليك والأسر الحاكمة ، مما أدى إلى التوتر السياسي ، وانعدام التواصل بين الأقاليم المتجاورة كما سيأتي في العناوين التالية .

– ولا يبعد أيضا أن يقع حيف السلاطين على العلماء ، فيمنعونهم من الرحلة خارج البلاد ، إما رغبة فيهم لتوطين ملكهم ، أو رهبة منهم خاصة وأن الفرق الإسلامية كانت في أوج صراعاتها ، وما قصة الإمام أحمد . رحمه الله . وغيره من العلماء مع المأمون في عهد المعتزلة عنا ببعيد.

---

[1] إميل بديع يعقوب : المعجم المفصل في اللغويين العرب ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ط أولى ، 1997 ، الجزء الأول ص 401.

[2] عبد العاطي غريب علي علام : البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين ، عبد القاهر الجرجاني ، وابن سنان الخفاجي ، ص 29 .

. وربما كان تعدد مصادر الثقافة من بين هذه الأسباب ، حيث يقول نور الدين محمد دنياجي :" ويبدو أنه عرف كيف يوظف ثقافته النحوية في نظرته إلى البلاغة والمعاني ، واستفاد من معرفته بلغات أخرى غير العربية ، كالفارسية ،والتركية ، وربما حتى الهندية في تعمق ظاهرة اللغة ووضع نظريته في علم المعاني و البيان "[1].

4- شيوخـــه :

يذهب معظم من أرّخ وترجم للجرجاني أنه تتلمذ على يد الشيخ أبي الحسين محمد بن الحسين بن عبد الوارث الفارسي المتوفى عام 377 هـ، كما أكد ذلك الجرجاني نفسه في مقدمة كتاب المقتصد حيث يقول علي أبو زقية : " كما كان في اتجاهه النحوي مشايعا للاتجاه البصري مثل شيخه أبي الحسين عبد الوارث (ت 421 هـ)، الذي تلقى عليه دراسة كتاب الإيضاح في النحو لأبي علي الفارسي (ت 377 هـ)، كما ذكر ذلك عبد القاهر في مقدمة كتابه المقتصد،وشيخه هو ابن أخت أبي علي و تلميذه "[2].

ويقول أحمد جمال العمري : " والجرجاني نسبة إلى بلدته جر جان التي ولد فيها ونشأ فيها ، وبذل جهده وعلمه فيها ، فلم يغادرها من أجل العلم ، شأن علماء العصر، وإنما قيض الله له نزيل جر جان أبا الحسين محمد بن الحسن بن عبد الوارث الفارسي ، ابن أخت أبي علي الفارسي ".[3]

وهناك من أهل السير والتراجم من يذكر شيخا آخر للإمام الجرجاني ، وهو أبو الحسن بن عبد العزيز بن الحسين بن علي بن إسماعيل الجرجاني المولود سنة 290 للهجرة .

---

[1] نور الدين محمد دنياجي : التفكير اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني ، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء ، ط أولى 1997 ، ص 43 . 44.

[2] عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، بحث وتقديم علي أبو زقية ، موفم للنشر ، 1991 ، ص.

[3] أحمد جمال العمري : المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني ، نشأتها وتطورها حتى القرن الرابع الهجري ، مكتبة الخانجي القاهرة ،1990 ، ص 228 .

حيث جاء في تاريخ الأدب لكارل بروكلمان ما يلي : " أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، كان تلميذا لعلي بن عبد الرحمن الجرجاني ، وأبي الحسين الفارسي ابن أخت أبي علي الفارسي في جر جان ".[1]

كما ذكر زكي مبارك في ترجمته لأبي الحسن الجرجاني أنه كان شيخا لعبد القاهر الجرجاني ، حيث يقول :" ويكفي في تقدير فضله أن نشير إلى أنه أستاذ عبد القاهر الجرجاني صاحب "**أسرار البلاغة** " و" **دلائل الإعجاز**".[2]

ثم قال زكي مبارك في الحاشية معلقا على الكلام المنقول سابقا:

" هكذا يقول ياقوت في معجم الأدباء ص 249 ، ولكنه يقول في ص 3 ،ج 7 : إن عبد القاهر ليس له أستاذ سوى محمد بن الحسين ابن أخت أبي علي الفارسي وكذلك قال في بغية الوعاة ص31 ".[3]

وقد وهم صالح بلعيد عندما قال :" ونجد الإمام الجرجاني قد نشأ في أحد قلاع الإسلام ومهبط العلماء ، وقد قرأ على ابن عبد العزيز بن الحسن بن علي بن إسماعيل الجرجاني ت1001م ، وهو ابن أخت أبي علي الحسن بن أحمد الفارسي ، وعلى يد أبي علي تتلمذ ابن أخته الذي تتلمذ عليه عبد القاهر".[4] حيث جعل أبا الحسن الجرجاني هو ابن أخت أبي علي الفارسي.

ولكي أدلل على هذا الوهم لابد من إبداء الملاحظات التالية :

الأول هو أبو الحسين محمد بن الحسين بن عبد الوارث الفارسي.

الثاني هو أبو الحسن . وليس الحسين . بن عبد العزيز بن الحسن بن علي بن إسماعيل الجرجاني .

فالأول كنيته أبو الحسين والثاني كنيته أبو الحسن.

الأول توفي عام 421 هـ والثاني ولد عام 290 هـ.

---

[1] كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب ألعربي ،نقله إلى العربية رمضان عبد التواب ، وراجع الترجمة السيد يعقوب، بكر ، دار المعرفة ، ط ثالثة د ت ، الجزء الخامس ، ص 199 .

[2] نور الدين محمد دنياجي : التفكير اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني ، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء ، ط أولى 1997 ، ص 43 . 44.

[3] المرجع نفسه ، الجزء الثاني ، ص 7 .

[4] صالح بلعيد : التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني ، ص8 .

الأول يقال له الفارسي نسبة إلى فارس ، ولذلك جاءت في ترجمته ألفاظ تدل على أنه نزل بجرجا ن ، ولم يولد بها حيث يقول عبد العاطي غريب علي علام : " فإن الله أرسل أستاذه أبا الحسين ... ".[1]

ويقول أحمد جمال العمري :" وإنما قيض الله له نزيل جر جان أبا الحسين محمد بن الحسين بن عبد الوارث الفارسي النحوي ابن أخت أبي علي الفارسي ".[2]

أما الثاني فهو ابن جر جان لذلك نسب إليها ويقال له الجرجاني .

الأول هو ابن أخت أبي علي الفارسي كما ذكر أهل التراجم ، والثاني لم يذكر أحد أنه ابن أخت أبي علي الفارسي . فيما أعلم . سوى ما قاله صالح بلعيد ، فسبحان من لا يضل ولا ينسى .

وعلى كل حال فإنه لا يبعد أن يكون هناك مشايخ آخرين قد تتلمذ الجرجاني على أيديهم ، خاصة وأن جر جان كانت حاضرة العلم ، ومهبط العلماء ، وكثيرا ما يأخذ طالب العلم عن جمع كثير من العلماء وبدرجات متفاوتة من الملازمة ، فيكتب الذكر لمن كثرت ملازمته ودامت ، ويكتب الغفلان لمن قلت ملازمته وقصر، ويقوى هذا الاحتمال عندما نضع في البال تلك الترجمات المقتضبة التي لا تضع الجرجاني في الصورة كما ينبغي ، ولا أدل على ذلك من عدم ذكر سنة الميلاد ، والاختلاف في سنة الوفاة .

[1] عبد العاطي غريب علي علام : البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين ، عبد القاهر الجرجانين وابن سنان الخفاجي ، ص 29 .

[2] أحمد جمال العمري : المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني ، نشأتها و تطورها حتى القرن الرابع الهجري ، ص228 .

5- الحالة الثقافية والسياسية والاجتماعية في عصره :

لكي يقف الباحث على الملامح الثقافية والسياسية والاجتماعية لابد من تأمل . وبتأن . العصر العباسي الثالث الذي يمتد ما بين سنة 334 هـ وسنة 447 هـ ، حيث ظهر في القرن الرابع والخامس الهجريين ظاهرتان مختلفتان ، إحداهما ذات وجه سياسي يتمثل في ضعف القيادة المركزية العباسية وعدم سيطرتها على الأقاليم التابعة للخلافة ، مما أدى إلى تمزق سياسي واجتماعي رهيب ، والأخرى ذات وجه مشرق تتمثل في الازدهار الحضاري والنضج الفكري الذي بلغته الحضارة الإسلامية في العصر العباسي الثالث .[1]

يقول جرجي زيدان متحدثا عن العصر العباسي الثالث :" يبدأ هذا العصر باستقرار الدولة البويهية سنة 334 هـ ، وينتهي بدخول السلاجقة بغداد سنة 447 هـ ، وقد قلنا في كلامنا عن العصر العباسي الأول إنه عصر الإسلام الذهبي .. ونعني أنه عصرها الذهبي من حيث منعة الدولة واتساع السلطان ، وفيه نقلت العلوم القديمة إلى العربية ، وأما عصر الإسلام الذهبي للعلم خاصة فهو العصر الذي نحن بصدده، أو المائة الثالثة للدولة العباسية ، لأنه فيه نضجت العلوم على اختلاف موضوعاتها ".[2]

وهذه الأعراض التي ظهرت في العصر العباسي الثالث هي في الحقيقة ثمرة لبذور العصر العباسي الثاني ، حيث كان من أكبر أخطاء الخليفة المعتصم أن أخرج العرب من ديوان الجيش لقلة ثقته بهم ، وأنشأ جيشا كبيرا من أرقاء الترك ، واستعان بهم على العرب، وعلى الفرس أيضا وهم أنصار الدولة العباسية الأولون ، فصار هؤلاء الأتراك هم أصحاب الأمر والنهي في قصر الخلافة ، يوّلون المناصب العالية من يشاءون من الصبيان و المستضعفين من أبناء الخلفاء ، فسقطت هيبة الخلافة من أعين الناس وتجرأ ولاّة الأقاليم على القيادة المركزية ، ورأوا أنهم ليسوا أقل شأنا من الأتراك حتى يكونوا رهن طاعتهم .

[1] ينظر : صالح بلعيد : التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني ، ص4.

[2] جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ط ثالثة ، 1978 ، الجزء الأول ، ص 529 .

أما زعماء الفرس فقد كانوا يتربصون بالعرب والأتراك الدوائر لاستعادة ملكهم المغصوب، فأنشأوا عدة دويلات وإمارات لهم.[1]

فعندما أذن القرن الرابع الهجري كانت بلاد فارس ما زالت تابعة شكليا للخلافة ببغداد ، وكان الخليفة في ذلك الوقت هو القادر بالله ، حيث استمرت خلافته من عام 991 إلى 1031م (381 هـ إلى 422 هـ)

وقد ظهرت عدة دويلات ببلاد فارس وهي :

أ- الدولة الزيارية بطبرستان:

وكان مقرها في جرجان بطبرستان ، وأول ملوكها هو مرداويح بن زيار ، تولى الملك عام 316 هـ ، وأشهرهم نصرة وتعظيما للعلماء هو شمس المعالي قابوس بن وشمكير (366هـ . 403هـ) وكان شاعرا أديبا وكاتبا بارعا باللغة العربية وله معرفة بالفلسفة والنجوم ومن شعره :

قل للذي بصروف الدهر عيرنا هل حارب الدهر إلا من له خطر

أما ترى البحر تعلو فوقه جيف وتستقر بأقصى قعره الدرر

وفي السماء نجوم ما لها عدد وليس يكسف إلا الشمس والقمر

ب- الدولة الغزنوية بأفغنستان والهند:

واستمرت ما بين عام 351 هـ و 582 هـ ، مقرها غزنة وملوكها أتراك ومن أشهر ملوكها السلطان محمود الغزنوي سنة (388 . 421هـ) ، وهو صاحب الفتوح العظيمة في الهند ، وناشر الإسلام فيها ، وكان يلقب بيمين الدولة ، حيث بسط نفوذه في أفغنستان وتركستان وخراسان وطبرستان وسجستان وكشمير وشمالي الهند ، وورث ما كان في تلك البلاد من أسباب العلم والأدب ، حيث جمع حوله الشعراء والأدباء ، فما سمع بأديب أو شاعر أو عالم إلا استقدمه إليه وقربه من مجلسه.

ج - الدولة البويهية في العراق وفارس :

واستمرت ما بين عام (320 هـ و 447 هـ) وملوكها آل بويه من الفرس ، ويمتد نسبهم إلى ملوك الفرس القدماء ، والجد الأول الذي أسس هذه المملكة اسمه بويه، ويلقب بأبي شجاع ، وكان آل بويه يحبون العلم والأدباء ، ولا يستعينون في إدارة ملكهم إلا بالعلماء والشعراء والكتاب، فقد كان أشهر أدباء ذلك العصر من وزرائهم أو عمالهم أو قضاتهم ، وكان البويهيون من أصل شيعي لا يكنون الاحترام للخلفاء العباسيين الضعفاء .

[1] ينظر : أحمد الاسكندري ، وأحمد أمين ، وعلي الجارم ، وعبد العزيز البشري ، وأحمد ضيف: المفصل في تاريخ الأدب العربي ، الناشر مكتبة الآداب ، القاهرة ، د ت ، ص 3 .

د . الدولة السلجوقية :

والسلاجقة من أصل تركي ، ظهروا في فترة حرجة من حياة الخلافة ، حيث أصبحت عبارة عن دويلات مبعثرة ، وأشهر ملوك السلاجقة الأولين هم :

. طغرل: الذي أعلن ملكا في مدينة مرو عام 429 هـ ، وتوفي عام 455هـ . . ألب أرسلان : ولد سنة 425 هـ وتولى الملك سنة 355 ، وتوفي 465 هـ.

. ملكشاه: تولى الملك سنة 565 هـ ، وتوفي عام 585 هـ .

حيث استمر ملك هؤلاء الثلاثة فترة تزيد عن نصف قرن من الزمان.[1]

فهذه الدويلات التي ظهرت ببلاد فارس إضافة إلى الدولة المروانية بالأندلس من سنة 138 إلى 422هـ، والدولة الحمدانية بين النهرين وحلب ، واستمرت من سنة 317 إلى 394 هـ ، والدولة الفاطمية في مصر والتي استمرت من سنة 357 إلى سنة 567 هـ ، كانت تعكس وجها سياسيا واجتماعيا مشينا للخلافة العباسية حيث التفرق والتمزق السياسي الظاهر في صراع واقتتال المماليك ، وكذا التمزق العرقي العصبي المتمثل في رغبة كل عرق جنسي في إقامة ملك خاص به يخدم قوميته ومذهبه العقدي، والانتقام من الأقوام والطوائف الأخرى.

هـ . أسباب التطور العلمي رغم التفرق السياسي :

ورغم هذه الأوضاع السائدة إلا أن الجانب الثقافي والحضاري العلمي لم يتأثر بذلك ، بل استمر في الازدهار والرقي ، فما هي أسباب ذلك؟

– انقسام الدولة:

فحين انقسمت الخلافة إلى دويلات مستقلة أو شبه مستقلة، صار لكل دويلة ملك، أو أمير يسيرها حسب هواه، وهذا ما جعل الفضاء رحبا أمام الأدباء والشعراء يتنافسون فيما بينهم، وفي مواضع كثيرة ، ففي أيام الوحدة السياسية مثلا كان الشاعر لا يجد أمامه سوى بغداد أما بعد الانقسام فالوجهات متعددة ، ولكل وجهة خاصيتها.

جاء في المفصل في تاريخ الأدب العربي ما يلي:" فلما انقسمت الدولة أوطانا واستقلت أطرافها ، وجد الشعر له أوطانا عدة، وتعددت طرق الشهرة أمام الأدباء والشعراء ، واتسع حولهم مجال الاختيار، وبعد أن كان الشاعر لا يجد أمامه غير بغداد، أصبح الآن يستطيع أن يختار الأمير الذي يزوره والبلد الذي ينزل به ، ومن

[1] ينظر : جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة الغربية ، ص 526 . 529 .

العجب أن انقسام الدولة وضعفها هنا كان سببا في قوة الأدب ونشاطه ، مع أنه من القواعد المعروفة في تاريخ الأدب أنه يقوى ويضعف بقوة الدولة وضعفها ".[1]

– التطور والارتقاء:

وهذه سنة من سنن الله الكونية ، فكل شيء يبدأ سهلا بسيطا وعاما ، وبمرور الزمن يبدأ في الصعوبة والتعقيد والانشطار ، شأنه شأن الكائن البشري الذي يكون ماء مهينا ، وبمرور الزمن يصير خصيما مبينا ، فكذلك العلوم العربية الإسلامية نشأت في البصرة والكوفة ونمت وتطورت ببغداد ، وترجمت العلوم الأجنبية وخاصة اليونانية من فلسفة ومنطق ، وأخذت العلوم تتفرع وتتخصص ، وبعد انقسام الدولة وظهور الدويلات القومية استتبع ذلك ظهور آداب قومية ، لكنها ذات صبغة عربية من الوجهة البلاغية وأساليب التركيب والأداء.

– الاهتمام بالعلم والعلماء من قبل الأمراء :

حيث وقع التنافس بين الأمراء في تقريب العلماء والشعراء من قصورهم، وكان لذلك أثر بالغ في إحياء العلوم ، وقد صور إدوارد جرانقيل براون هذا التنافس فقال :

" وقد امتاز هذا الزمان بتقدير الأمراء لرجال الأدب والسعي إلى إرضائهم ، وخطب ودهم ، فقد كان كل أمير يريد أن يتفوق على أقرانه وخصومه في كثرة من يحوطه من رجال العلوم والفنون".[2]

ولهذا سأحاول نقل بعض النصوص والوقائع التي تدل على هذا الاهتمام و التنافس في تلك الدويلات ، مثلا قابوس أحد الملوك الدولة الزيارية التي كان مقرها بجرجا ن كما مّر ،كان شاعرا وبليغا ، يقول عنه " ابن اسفنديار " في " تاريخ طبرستان " :" إن من شاء أن يلمس عظمته ورفعته ، فعليه أن يقرأ ما كتبه عنه " الثعالبي" و" العتبي" في كتبهما "[3] وها هو محمود الغزنوي أمير الدولة الغزنوية ، حيث كان لا يسمع بعالم أو شاعر إلا استقدمه إليه ، فعلم يوما أن مأمون بن مأمون أمير خوارزم يلتف حوله في مجلسه كوكبة من العلماء والفلاسفة، ومن بينهم ابن سينا الطبيب ، والبيروني الرياضي المؤرخ، وأبو سهل المسيحي الفيلسوف وغيرهم ، فكتب إلى أمير خوارزم ما يلي : " علمت أن في مجلسك جماعة من العلماء المبرّزين مثلا فلان وفلان ، فأرسلهم

[1] أحمد الاسكندري ، وأحمد أمين ، وعلي الجارم ، وعبد العزيز البشري ، وأحمد ضيف: المفصل في تاريخ الأدب العربي، ص8 .

[2] إدوارد جرانقبيل براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ، نقله إلى العربية إبراهيم أمين الشواربي ، مكتبة الثقافة الدينية ط أولى ، سنة 2004م ، ص 115.

[3] المرجع نفسه، ص 119 .

إلي ليتشرفوا بمجلسي ونستفيد من علمهم "...فقبل البيروني والخمّار والعراق الذهاب طمعا في سخاء السلطان ، وفرّ ابن سينا والمسيحي "[1]

أما آل بويه فقد عرفوا بحبهم للعلم والأدب ، بل إنه قد اشتهر منهم غير واحد في الأدب والشعر، وهاهو أشهر ملوكهم عضد الدولة المتوفى عام 372 هـ، ألف له أبو إسحاق الصابي كتابا في أخبار آل بويه سماه "**التاجي**" .

وألف له أبو علي الفارسي كتاب الإيضاح الذي شغف به عبد القاهر الجرجاني حيث ألف المقتصد في شرح الإيضاح. ومن الأمراء السلاجقة الذين عاصرو الجرجاني

" **نظام الملك**" ت 480 هـ، ومن أجلّ الأعمال التي قام بها هي بناء " **المدرسة النظامية**" الشهيرة في بغداد، وأمدها بالمال، حيث فرغ من بنائها عام 460 هـ ، واستطاعت هذه المدرسة أن تأوي الكثير من المربين الكبار والعلماء الأفذاذ مثل الفقيه " **أبي حامد الغزالي** ".[2]

وقد مدح عبد القاهر الجرجاني "**نظام الملك**"على هذه الفعلة الحميدة بأبيات شعرية قال فيها:

لو جاود الغيث غدا بالجود منه أجدرا
أو قيس عرف عرفه بالمسك كان أعطرا
ذو شيم لو أنـها في الماء ما تغيّرا
وهمة لو أنـها للنجـــم ما تغـوّرا
لو مسّ عودا يابسا أورق ثم أثمـرا.[3]

[1] جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ص 536 .

[2] ينظر: إدوارد جرانقبيل براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ،ص 19 . 20 .

[3] ينظر: صالح بلعيد : التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عن الإمام عبد القاهر الجرجاني ، ص 908 .

6- ثقافة عبد القاهر الجرجاني ومصدرها:

إن المستقرئ لحياة الجرجاني يدرك تمام الإدراك أن الرجل قد أحاط بكثير من العلوم، فإضافة إلى ما أخذه عن مشايخه، خاصة علم النحو الذي أخذه عن ابن أخت أبي علي الفارسي، ويبدو أن هذا الأخير قد أخذه عن خاله،هناك علوم أخرى قد نهل منها ، فإذا تحدث عن التأثير النفسي فكأنه عالم نفسي، وإذا حاجج فهو فيلسوف ومنطقي، أما البلاغة والإعجاز فقد حاز فيهما قصب السبق، ولعل ما ساعده على كل هذا هو تنوعه الثقافي واللغوي فإتقانه للغة الفارسية . وهي لغته . إضافة إلى التركية، جعله يطلع على ثقافة الآخرين دون واسطة، ولا يعني هذا أن ثقافته غير عربية بل هي ثقافة عربية إسلامية خالصة.

كما أوتي الجرجاني ذهنا وقّادا، وحسا مرهفا، وفهما ثاقبا، وذوقا لغويا رفيعا، ساعده على الاستفادة من مؤلفات المتقدمين وبلورتها جيدا.

فإذا تصفحت " أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز" تجده يذكر الخليل بن أحمد وسيبويه، والزجاج، وابن جني، وأبا علي الفارسي وغيرهم.

أما في البلاغة والنقد فكل من قرأ الدلائل يدرك تمام الإدراك أن الرجل قد وعى كل ما كتبه من تقدمه من علماء البلاغة من الجاحظ إلى أبي هلال العسكري مرورا بابن قتيبة، والمبرد، وابن المعتز، وقدامة بن جعفر، والقاضي الجرجاني والآمدى وغيرهم.

وهناك مثال واضح يؤكد هذا الوعي والتأثر، فقد ذكر مؤلفو

" **الأسلوبية.. والبيان العربي** " أن الجرجاني تأثر بما كتبه القاضي الجرجاني المتوفى عام 392 هـ في كتابه " الوساطة" فقالوا :" ويتجلى أثر الوساطة بوضوح في كتابي عبد القاهر : الدلائل والأسرار، فكثيرا ما يقتبس من آرائهما، أو يأخذ قضية مسلمة يبني عليها ويستدل بها، فكلام عبد القاهر في المعاني " وزيادة شاعر على آخر فيها

وكذلك حديثه عن السرقة ومظاهرها، وما تقع فيه من المعاني، إلى غير ذلك مما نراه في الدلائل وفي الأسرار، كل ذلك قد تأثر فيه عبد القاهر بالقاضي ..."[1]

[1] محمد عبد المنعم خفاجي، محمد السعدي فرهود، عبد العزيز شرف : الأسلوبية ...والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط أولى ، 1992، ص 96 .

7- مؤلفـــاتـــه:

إن ما تركه عبد القاهر من مؤلفات تدل دلالة تامة على أن شهرة الرجل لم تكن نتيجة تكثيف إعلامي من قبل السلاطين والملوك، بل إن علّو كعبه في العلم هو الذي جعله كذلك، وقد ترك ما يلي من المؤلفات:

7 .1 المغني: وهو شرح لكتاب الإيضاح في النحو لأبي علي الفارسي النحوي، وقد جاء مبسطا في نحو ثلاثين مجلدا (وهو ضائع) .

7 .2 المقتصد: وهو مختصر للمغني في ثلاثة مجلدات، ألفه عام 454 هـ وقرأه عليه أحمد بن محمد الشجري [1]،والشجري هو تلميذ عبد القاهر.

7 .3 التكملة:وهو زيادات وإضافات على المغني (وهو ضائع).

7 .4 الإيجاز:وهو مختصر للإيضاح، لأن الإيضاح حظي بعناية خاصة من قبل النحاة، للإشارة توجد نسخة منه بالمتحف البريطاني.

7 . 5 الجمل: وهو كتاب في النحو ، ويسمى أيضا بالجرجانية، وعليه شروح كثيرة وهو شرح لكتاب " **العوامل**".

7 .6 التلخيص: وهو شرح لكتاب الجمل.

7 .7 العوامل المائة في النحو: وعليه شروح كثيرة،وقد حظي هذا المؤلف باهتمام خاص من قبل الدارسين والمتعلمين ، وقد نظم وشرح وترجم إلى التركية والفارسية وتوجد نسخة منه بدار الكتب المصرية، ومكتبة جامعة الدول العربية (وهو مطبوع).

7 .8 العمدة في التصريف : وتوجد نسخة منه مصورة بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية، صورت عن نسخة بتركيا بمخطوطات النحاة.[2]

7 .9 وله كتاب في العروض ، وهو مطبوع في ذيل كتاب الإقناع في العروض للصاحب بن عّباد، ويقع في صفحات، وهو قصيدة شعرية تتضمن قواعد الأوزان الشعري[3].

---

[1] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، ط أولى ، 2004 هجري، ص 11 .

[2] نور الدين محمد دنياجي : التفكير اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني ، ص 44 . 45.

[3] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني ، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، ص 11 .

10.7 التتمة في النحو: وتوجد نسخة منه في المتحف البريطاني، يقول عبد العاطي غريب علي علام :" وربما أراد عبد القاهر أن يضيف مسائل لم يذكرها صاحب الإيضاح".[1]

11. 7 كتاب المفتاح : ذكره صاحب فوات الوفيات والسبكي في "طبقات الشافعية " ولم تذكر التراجم نوع الدراسة التي جاءت فيه (وهو مفقود).

12. 7 شرح الفاتحة : وقد جاء في مجلد ، ويجهل أي نوع من التفسير والشرح الذي اتبعه فيه (وهو ضائع[2].

13. 7 شرحان على " إعجاز القرآن الكريم ":لأبي عبد الله محمد بن زيد الواسطي المتوفى 306 هـ ، الشرح الأول سماه المعتضد الكبير ، والثاني سماه المعتضد الصغير، وبعض المصادر تسميه المقتضب وليس المعتضد[3].

14. 7 التذكرة :ذكره القفطي في إنباه الرواة .[4]

15. 7 مختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام:نشره الأستاذ عبد العزيز الميمني بعليكرة بالهند في كتاب "الطرائف الأدبية[5].

16. 7 الرسالة الشافية في الإعجاز:وهو منشور ضمن " **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**"بتعليق الدكتور محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، فقد ذكر عبد القاهر في هذه الرسالة شبه المعاندين في إعجاز القرآن، ورد عليهم آراءهم ،كما أبطل قول القائلين بالصرفة وأثبت أن القرآن معجز بنفسه ونظمه.

17. 7 أسرار البلاغة .

---

[1] عبد العاطي غريب علي علام : البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين ، عبد القاهر الجرجاني ، وابن سنان الخفاجي، ص 11 .

[2] نور الدين محمد دنياجي : التفكير اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني ، ص 44 . 45.

[3] صالح بلعيد : التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند عبد القاهر الجرجاني، ص 11 .

[4] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني ، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، ص 1.

[5] نور الدين محمد دنياجي : التفكير اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني، 44 . 45 .

18.7 دلائل الإعجاز في علم المعاني.

ويظهر من خلال الوقوف على مضامين هذه المؤلفات والمواضيع المعالجة فيها، أن الإمام الجرجاني هو عالم نحوي بالدرجة الأولى ، وبلاغي بالدرجة الثانية ، إلا أن شهرته البلاغية قد طغت على نحويته ، وصار يذكر في طليعة البلاغيين والنقاد.

فمؤلفاته في النحو والصرف هي تسعة مؤلفات ، أربعة منها تدور حول كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي الذي تلقاه عن شيخه أبي الحسين بن عبد الوارث ابن أخت أبي علي الفارسي ، مما يدل على أن لهذا المؤلف أثرا بالغا في الحياة العلمية لعبد القاهر ، ولعله أول كتاب تلقاه عن شيخه في فجر حياته العلمية ، وحتى كتاب المفتاح الذي لم يعرف موضوعه قد يكون نحويا وذلك يشتم من السجع الذي درج عليه الأولون في تدبيج عناوين مؤلفاتهم ، فقد يكون عنوانه المفتاح في شرح الإيضاح أو شيء من هذا القبيل.

أما مؤلفاته في البلاغة والإعجاز القرآني فهي أربعة، كتب لاثنين منها الذيوع والانتشار، أحدها الأسرار والثاني الدلائل الذي هو موضوع البحث.

8- نسبة الكتاب:

كنت إلى وقت قريب وأنا أتصفح الدلائل ينتابني شك حول نسبة هذا الكتاب إلى صاحبه ، ذلك لأنه جاء على غير عادة أسلافه من ترتيب وتبويب وتقسيم، خاصة وأن الرجل كان بصدد التأسيس لنظرية جديدة، حتى لكأن المحتوى فرّغ من أشرطة سجلت عليها مناظرة جرت على عجلة بينه وبين خصومه.وقد زالت الغرابة بالوقوف على قول أبي فهر محمود محمد شاكر: " ولكن كان غريبا عندي أشد الغرابة ، أنه لم يسر في بناء كتابه سيرة من يؤسس علما جديدا ، كالذي فعله سيبويه في كتابه العظيم، أو ما فعله أبو الفتح ابن جني في كتابه الخصائص ... بل كان عمله وهو يؤسس هذا العلم الجديد مشوبا بحمية جارفة ، لا تعرف الأناة في التبويب والتقسيم والتصنيف ، وكأنه كان في عجلة من أمره ، وكأن منازعا كان ينازعه عند كل فكرة يريد أن يجليها ببراعته وذكائه وسرعة لمحه ، وبقوة حجته ومضاء رأيه "[1].

فالكتاب إذن جاءت فصوله غير مرتبة ولا مهذبة ، فما يفرغ من مسألة في فصل مضى، إلا وتجده يبدي القول ويعيده فيها ، حتى صار الكتاب كأنه فصل واحد ومسألة واحدة.

[1] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ، ط ثالثة ، 1992 ، المقدمة ص أ .

فمثلا قضية البسملة نجدها ذكرت في المدخل وفي المقدمة ، ثم في الصفحة 294 ، وفي الصفحة 367 ، وفي الصفحة 403 ، وفي الصفحة 415 ، و 418 في الفصل الأخير: " سبب وضع مفردات اللغة وحكمته وهو قصد التركيب" فلماذا البسملة في هذه الفصول الأخيرة دون غيرها؟ ولعل الإمام الجرجاني كتب هذا المؤلف في خريف حياته وكان ينوي تنقيحه وترتيبه ولكن المنية اخترمته قبل أن يحقق ذلك ، وهذا ما رجحه محمود محمد شاكر حيث يقول: " وأنا أرجح أن عبد القاهر ، كتب كتابه هذا في أواخر حياته ، بدليل ما هدتنا إليه النسخة المخطوطة من " الدلائل" التي رمزت إليها بالحرف " ج " كما سأبينه فيما بعد ، وأنه كان يوشك أن يعيد النظر في كتابه ، ليجعله تصنيفا في علم جديد اهتدى إليه واستدركه على من سبقه وشق له الطريق ومهده ، ولكن اخترمته المنية قبل أن يحقق ما أراد"[1].

وبالرجوع إلى ما يشترطه علماء تحقيق المخطوطات من شروط لصحة نسبة الكتاب إلى صاحبه وجدتها كاملة غير منقوصة في الدلائل.

فهاهو شيخ المحققين عبد السلام محمد هارون يقول: " فالكتاب المحقق هو الذي صح عنوانه، واسم مؤلفه، ونسبة الكتاب إليه، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه "[2].

والعلماء قد تواترت أقوالهم أن دلائل الإعجاز في علم المعاني هو للإمام عبد القاهر الجرجاني ، ولم تقع عيني حتى الآن على قول لأحد شكك في عنوان الكتاب ونسبته، أما متنه فقد عني به وصححه إمامان من أئمة اللغة وآدابها وهما الشيخ محمد عبده ، رئيس جمعية إحياء العلوم العربية، ومفتي الديار المصرية الذي استحضر نسخة من المدينة المنورة وأخرى من بغداد ليقابلها على النسخة التي عنده ، والشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي وعلق عليه الإمام الشيخ محمد رشيد رضا، حيث قال:" وذكرت ثمة أنني لما هاجرت إلى مصر لإنشاء مجلة " **المنار**" الإسلامي في سنة 1315 هـ ، وجدت الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رئيس جمعية إحياء العلوم العربية، ومفتي الديار المصرية، مشتغلا بتصحيح الكتاب... وأزيد الآن : أنه قد عني بتصحيحه أتم عناية وأشرك معه فيها إمام اللغة وآدابها في هذا العصر (الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي)، وناهيك بكتاب اجتمع على تصحيح أصله علاّمتا المعقول المنقول "[3] .

---

[1] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني ، مرجع سابق ، المقدمة ، ص هـ . و .

[2] عبد السلام محمد هارون:تحقيق النصوص ونشرها،مكتبة السنة،الدار السلفية لنشر العلم،القاهرة،ط خامسة ، 1994م ،ص 42.

[3] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني ، صحح أصله علاّمتا المعقول المنقول الأستاذ الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية والأستاذ اللغوي المحدث الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي ، علق عليه السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط أولى ، 1994 ، ص 2 .

9- هــدف الكتــاب :

يجزم كل مطلع على الدلائل أنه جاء ليدحض آراء ويثبت أخرى وما من شك أن وراء كل فكرة أو رأي طائفة من الطوائف ، أو عالم من العلماء ، فمن يكون المقصود بمؤلف الجرجاني؟

هناك فكرتان كررهما الجرجاني وحاول إبطالهما ، أولهما زعم الزاعم أن القرآن معجز بلفظه ، والفكرة الثانية قول أهل الصرفة الذين يرون أن القرآن غير معجز، وإنما الله عز وجل صرف العرب عن الإتيان بمثله نصرة لكتابه ودينه، وفي المقابل راح يثبت فكرة النظم التي مفادها أن القرآن غير معجز بلفظه المفرد ، ولا بمعانيه وحدها ، وإنما إعجازه يتمثل في نظمه وصياغته اللغوية الفريدة البديعة التي عجز الناس عن الإتيان بمثلها ، مؤكدا صدق نظريته من خلال النص الأدبي شعرا ونثرا.[1]

وقد جاء محمود محمد شاكر بما لا يدع مجالا للشك في أن المقصود الأول بهذا المؤلف، هو القاضي " أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الآسداباذي ".

وذلك عندما وقف على أقوال كثيرة ، لم ينسبها الجرجاني إلى أصحابها، ومن بين هذه الأقوال قولهم:" **إن المعاني لا تتزايد، وإنما تتزايد الألفاظ**" ، وقولهم : " **إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات ولكن تظهر بالضم على طريقة مخصوصة** "، كما وسم هذه الأقوال بالفاسدة والمرذولة معرّضا بأصحابها ، وإن كانوا أصحاب نباهة وصيت وعلو منزلة في غير العلم الذي تحدثوا فيه ، ثم فشا وانتشر هذا القول على الألسن ، وكثر المشيدون به، ظنا منهم أنه لو كان مدخولا لظهر دخله على تقادم الزمان ومرور الأيام.[2]

يقول محمود محمد شاكر مبينا كيف اهتدى إلى هذا الرأي ما يلي:"حتى كانت سنة (1381هـ . 1961م) وطبع كتاب المغني للقاضي المتكلم المعتزلي [توفي سنة 415 هـ] ...في تلك السنة صدر الجزء السادس من كتاب "المغني " ، فإذا هو يتضمن فصولا طويلة في الكلام على " ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم"... فلما قرأته ، ارتفع كل شك ، وسقط النقاب على كل مستتر ، وإذا التعريض الذي ذكره عبد القاهر ... لا يعني بهذا التعريض وبهذه الصفة أحدا سوى قاضي القضاة المعتزلي عبد الجبار ".[3]

وإذا كان الجرجاني قد عرّض بالقاضي عبد الجبار ، فهذا لا يعني أنه لم يصوب سهام جدله ونقده إلى غيره من أصحاب الآراء الأخرى ، بل إنه كان في ذلك مشفقا على اللغة وما أصابها في القرن الخامس الهجري ،

---

[1] ينظر: عبد الفتاح عثمان في علم المعاني ، دار الهاني للطباعة ، القاهرة ، 1991 ، ص 10 .

[2] ينظر : عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني ، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، المقدمة ، ص ب . ج .

[3] المرجع نفسه، المقدمة ص ج . د .

حيث بدأ الضعف يدب إليها والجمود يحاصرها، فلا حديث إلا على قوانين النحو الظاهرة ومضامين الألفاظ المفردة ، والجمل الجاهزة ، بعيدا عن ضروب القول وأساليبه.

يقول عبد العزيز عتيق : " ومن العجب أن الضعف بدأ يدب إلى اللغة في القرن الخامس وهي في أوج نهضتها ، وكان أول مرض ألم بها في هذا العصر، هو الوقوف عند ظواهر قوانين النحو، ومدلول الألفاظ المفردة ، والجمل المركبة ، والانصراف عن معاني الأساليب ، وعدم الاهتمام بمناحي القول ، وضروب التجوز، والكناية فيه"[1]

وهذه سنة تدافعية بين الخطأ والصواب، بل وفي شتى مناحي الحياة ، فعندما ظهر اللحن والخطأ في الإعراب ، وضع أهل الاختصاص قوانين النحو ، وعندما وقع اللحن في الأساليب والتعابير وضع أهل الاختصاص قوانين للبيان والمعاني ، يقول عبد العزيز عتيق ثانيا : " وكان ذلك مما أشفق منه عبد القاهر على اللغة فعكف على تأليف " دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة" اللذين دوّن فيهما علم البلاغة ووضع قوانين البيان والمعاني ، كما وضعت قوانين النحو عند ظهور الخطأ في الإعراب"[2].

10- قضايا محتـوى الكتـاب :

قبل الولوج إلى لب الكتاب لابد من الوقوف على عنوانه الذي يعد الواشي الحقيقي والأول عنه.

فكلمة " دلائل" التي جاءت على صيغة جمع الكثرة الموحي بكثرة الأدلة على إعجاز القرآن الكريم ، توحي بأن هذا المؤلف سيق لسرد الأدلة الشرعية والكلامية والمنطقية واللغوية وحتى الكونية ، لكن الشطر الثاني من العنوان ينفي هذا المعنى العام ، ويقصره على المعنى الخاص وهو " في علم المعاني".

يقول علي أبو زقية : " إنه بالتأكيد لم يتناول في كتابه هذا .كما قد يتصور. أدلة الإعجاز الكلامية والمنطقية ، التي كان من شأن المتكلمين والمناطقة أن يتناولوها ، ولكنه عني بإعجاز القرآن من زاوية تخصصه اللساني والأسلوبي ، فأوضح لنا أن إتقان تأليف جمل الكلام وتراكيبه والتفنن في نظمها وحسن صياغتها ، هو طريق البلاغة والإعجاز"[3]

---

[1] عبد العزيز عتيق : في البلاغة العربية ، علم البيان ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، 1985 ، ص 22 .

[2] المرجع نفسه، ص 22 .

[3] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تقديم أبو زقية، ص 1 .

وإذا ثبت أن الجرجاني قصد في بحثه أدلة الإعجاز في علم المعاني ، فما المقصود بالمعاني؟ أهي معاني الكلمات المفردة؟ أم معاني النحو؟ أم معاني الجمل وأغراضها؟

وهذه المعاني كلها محتملة ، فصار المصطلح في دائرة المشترك اللفظي ، لكن الجرجاني انتبه إلى هذا ، لذلك حذر من الخلط في المفاهيم ، وبيّن أن المقصود معاني النحو، أو وظائفه وقواعده التي تعد الأساس في تحديد صحة تأليف الكلام أو خطئه، ولكنه يؤكد أن تخير الوجه الأكثر ملاءمة من بين وجوه المعاني المتاحة هو الذي يكسب النص ميزة بلاغية ، ترقى به في مدارج الإعجاز ، يقول مؤلفو " الأسلوبية... والبيان العربي ": "وقد سمى كتابه "دلائل الإعجاز" وهو لا يريد حجج الإعجاز ، لأنه لم يتكلم عنها، ولم يعرض لها وإنما يريد بالدلائل ، معنى مقدمات ، فكأنه يقول هذه هي مقدمات لفهم قضية الإعجاز وأسراره، ومن ثم جعل الكتاب من أوله إلى آخره خاصا بقضية النظم ، وبالتطبيق النقدي عليها ، لأن معرفة هذه القضية مقدمة لمعرفة أسرار الإعجاز نفسه"[1].

ومن خلال كل ما تقدم ندرك أنه ليس المقصود بعلم المعاني عند الجرجاني هو ذلك العلم الذي عناه السكاكي ، وجعله قسيم البيان والبديع في كتابه المفتاح.

يقول مؤلفو " الأسلوبية ... والبيان العربي " : " ومن الخطأ الجسيم ما ذهب إليه كثير من الباحثين، من أن "دلائل الإعجاز" يعنى ببحوث علم المعاني ، ودليل هذا الخطأ الفادح واضح ، فإن عبد القاهر لم يخص كتابه دلائل الإعجاز ببحوث علم المعاني وحده ، بل تكلم فيه كذلك عن التشبيه والاستعارة ، والمجاز والكناية مما هو من مباحث علم البيان ... وإذا كانت كلمة المعاني وردت عند عبد القاهر في الدلائل فإنه لم يكن يعني بها نفس المدلول الذي جعله السكاكي لها وعناه بها"[2].

وإذا عدنا إلى فحوى الكتاب وجدناه يدور حول قضية الإعجاز، وأن القرآن معجز في نفسه ، وأن إعجازه يكمن في نظمه ، ونفى أن يكون إعجازه في اللفظ المفرد، أو معنى اللفظ المفرد ، كما رد على القائلين بالصرفة المنادين بإمكان المعارضة لولاها ، وجملة الأمر أن كتاب الدلائل سيق لشرح نظرية النظم التي دعا إليها الإمام الجرجاني.

يقول صالح بلعيد : " لذا نلاحظ أنه قد أحدث أفكارا في كتابه هذا نتيجة التفاعل بين الأفكار النحوية والبلاغية ، التي عمل على دفعها إلى مرحلة متقدمة ، مؤكدا على وظيفة الكلم في إطارها التي صيغت فيه ،

[1] محمد عبد المعم خفاجي ، محمد السعدي فرهود ، عبد العزيز شرف :الأسلوبية ... والبيان العربي، ص 87 .

[2] المرجع نفسه ، ص 87 . 88 .

وهدف بجهده دراسة التركيب اللغوي في الأساليب المتنوعة للتعبير عن المعنى داخل السياق المفيد ، كما هدف إظهار الإعجاز القرآني ، وذلك في مختلف العبارات التي صيغت فيه على طريقة خاصة "[1].

ومن المسائل التي تطرق إليها عدا ما سبق ما يلي:

. نشأة اللغة.

. سبب وضع مفردات اللغة.

. نظم الكلم ونظم الحروف.

. فصاحة الكلمة المفردة.

. الفصاحة والبلاغة والبراعة.

. الشعر والنحو وخطأ من زهد فيهما .

. الخبر وأنواعه.

. التقديم والتأخير.

. مسألة اللفظ والمعنى والرد على الفريقين.

. السرقات الشعرية وغيرها من الموضوعات.

11- مكانــة الكتــاب :

. يحتل كتاب الدلائل مكانة الصدارة في كتب البلاغة والنقد، وذلك لما تميز به عن غيره من مزايا أجملها فيما يلي:

. إنه يشكل مرحلة هامة من مراحل تاريخ علم اللغة العربية، وهي مرحلة الدراسة الوظيفية التي تعنى بتحديد قواعد بلاغية، وذلك من خلال مراعاة جميع العناصر المؤثرة في عملية الإبلاغ والتواصل ، انطلاقا من نفسية المخاطِب والمخاطَب وكذا السياق المقامي التداولي .

. في القرن الخامس وصلت العلوم العربية بصفة عامة إلى مرحلة التخصص والتفرع والانشطار عن بعضها ، فأرجع عبد القاهر اللحمة فيما بين تلك العلوم ، خاصة بين النحو والبلاغة ، وبذلك أعاد الروح لعلم النحو الذي صار علما جافا يعنى بالقوانين الظاهرة للإعراب.

. ركز فيه صاحبه على الاتجاه التحليلي الفني الذي يقوم على تحليل النصوص وتذوقها، وفقه التراكيب اللغوية ، والوقوف على قيمها الجمالية.

[1] صالح بلعيد :التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني ، ص 28 . 29 .

. يقول عبد الفتاح عثمان في مبحث له تحت عنوان " الاتجاه التحليلي الفني ": " وقد تمثل هذا الاتجاه في جهود عبد القاهر الجرجاني البلاغية ، ففي كتابه (دلائل الإعجاز) نجد تحليلا فنيا بارعا لمباحث علم المعاني من خلال تذوق النصوص وفقه التراكيب اللغوية ، واستنباط قيمها الجمالية، غير أن دراسته لهذه المباحث لم تكن تحت إطار مصطلح المعاني ، بل كانت تتم في إطار شرح نظريته في النظم"[1].

فمن خلال هذا النص يمكن الحكم على أن الجرجاني كان عمليا واقعيا في مؤلفه هذا أكثر منه نظريا تأصيليا ، فالشيخ يحصي كل حركة أو تغير يحدثه الأديب أو الشاعر في نظم الكلام من تقديم وتأخير ، وتعريف وتنكير وذكر وحذف ، وإيجاز وإطناب ، وفصل ووصل ، لما لها من أثر في بلاغة الكلام شريطة أن تكون هذه الحركة وهذا التغيير مما تستسيغه قواعد النحو العربي ومعانيه[2].

ويعود الفضل في الاهتمام بهذا الكتاب للإمام محمد عبده،الذي أشرف على تصحيحه وأمر بطبعه ليكون مادة للدرس البلاغي في الأزهر الشريف مع صنوه أسرار البلاغة ، ومن حينها صار الدلائل يعتبر كتاب بلاغة ، بعد أن كان يعتقد أنه كتاب كلام وجدل.[3]

ولو أن كتاب الدلائل جاء مبوبا ومرتبا ، لكان هو الكتاب المقدم . بلا منازع . لدى دارسي البلاغة في العصور التالية لعصر مصنفه ، يقول عبد الحميد هنداوي : " ولكن يأبى الله الكمال إلا لكتابه ، فلقد كان يفترض أن يكون هذا الكتاب هو المقدم لدى دارس البلاغة في العصور التالية لزمان مصنفه ، فحال دون ذلك ما جاء عليه الكتاب من عدم ترتيب صاحبه له الترتيب اللائق له ، والاعتناء بتقسيم مباحثه ، وتبويب أبوابه "[4].

---

[1] عبد الفتاح عثمان: في علم المعاني ،ص 10 .

[2] ينظر : عائشة حسين فريد : منهج البحث البلاغي، ص 109 .

[3] ينظر:عبد العاطي غريب علي علام :البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين، عبد القاهر الجرجاني، وابن سنان الخفاجي، ص 34 .

[4] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط أولى ، 2001م ، المقدمة ، ص 3 .

12- منهج عبد القاهر في الدلائــل :

لقد ثبت بما لا يدع مجالا الشك أن الإمام الجرجاني ألف كتاب الدلائل لخدمة الدين والعقيدة ، وبيان أن بلاغة وبراعة الكلام تكون في نظمه، وأن القرآن معجز بنظمه وليس بالصرفة ، ولكن تحدث عن القرآن وإعجازه حديثا موجزا ، لأنه مهتما بوضع القواعد والأسس والمقدمات التي يحلل على ضوئها كلام الله ، لنقف على موضع الإعجاز فيه. يقول عبد المنعم خفاجي : " ويتحدث عبد القاهر في إعجاز القرآن حديثا موجزا ، لأنه مشغول بوضع الأساس الذي يحلل كلام الله على ضوئه ليعرف إعجازه"[1].

وقد اتبع الجرجاني منهجا متدرجا في عرض ملامح نظرية النظم ، ففي كل مرة ومع كل مثال يكشف عن خيط جديد من خيوطها ، جامعا في ذلك بين الحس الفني البلاغي والفكرة العقلية المنطقية ، يقول أحمد جمال العمري :" وعبد القاهر لا يطرح هذا المنهج دفعة واحدة ، ولا يحدد ملامح النظرية مرة واحدة ، وإنما لا يفتأ يكشف بين الحين والحين طرفا من أطراف هذا المنهج ، وجانبا من جوانب تلك النظرية ... وهو لا يكتفي بهذا النقاش السابق ، وإنما يمضي في دعم وجهة نظره ، وكشف جانب آخر من جوانب منهجه ، يمتزج فيه الحس البلاغي بالفكرة العقلية أتم امتزاج "[2].

إذن يظهر من خلال هذا النص أن الجرجاني في الدلائل اتجه اتجاهين لتقرير نظرية النظم :

الاتجاه الأول هو : الاتجاه التأصيلي التنظيري .

الاتجاه الثاني هو : الاتجاه التحليلي الفني الأدبي الأسلوبي.

فهو لا يتحدث عن فكرة أو قاعدة إلا وأشبعها بالتمثيل والتحليل، بل وتجده يكرر الفكرة في مواضع كثيرة من الكتاب ، وفي كل موضع تراه يكرر حججه العقلية والنقلية من القرآن الكريم ، والشعر المتين ، يقول عبد العاطي غريب علي علام : " ... وكان منهجه فيه أن يكرر ويعيد الحديث عن النظم ، ويكثر من الأمثلة والشرح ليقرب الفكرة ويقتنع بها الناس ، مع ذكر الدليل تلو الدليل في وضوح ... ويناقش مذهب القائلين بالصرفة ويبطل حججهم بالأدلة العقلية والنقلية من القرآن الكريم والشعر الرصين ... وكان لا يترك فكرة إلا حللها تحليلا دقيقا ، وربما عاد إليها مرة ثانية بالتحليل والتوضيح "[4].

---

[1] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في عم المعاني ، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، ص 1.

[2] أحمد جمال العمري : المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني ، نشأتها ، وتطورها حتى القرن الرابع الهجري، ص 245 .

[4] عبد العاطي غريب علي علام : البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين ، عبد القاهر الجرجاني ، وابن سنان الخفاجي، ص 34 .

وكان يستعين في شرحه للنصوص الأدبية من شعر ونثر وقرآن بثقافته الواسعة وذوقه الرفيع. يقول أحمد حسن صبرة : " بعد أن يعرض عبد القاهر لمفهوم النظم يأخذ في شرح النصوص الأدبية (شعرا ونثرا وقرآنا) شرحا يعتمد فيه على المعاني المستفادة من النحو بالإضافة إلى ذوقه الرفيع وقدرته على تحليل النصوص ، والكشف عن مراميها وأغراضها في دقة "[1].

وإذا كان الجرجاني جمع بين التحليلات الفنية الرائعة والحجاج المنطقي النظري فيمكن لنا القول : إنه جمع بين ميزة المدرسة الأدبية والمدرسة الكلامية ، يقول مصطفى الصاوي الجويني : " وهو أيضا ليس ينتمي إلى المدرسة الكلامية الطابع ، وبالرغم من أنه أشعري المذهب وأنه يحاجج حجاجا نظريا ومنطقيا في " دلائل الإعجاز" ويفلسف ما ينتهي إليه من فكر نقدي ، وإذا كنا نلمح بعامة أنه أدبي في
" أسرار البلاغة" فهو كلامي في "دلائل الإعجاز" ومع ذلك نلمح آثارا من الكلامية في" الأسرار" وومضات مشرقة من الأدبية في الدلائل "[2].

خاتمة البحث:

هي دراسة مفصلة جمعت بين علوم شتى؛ من التراجم والسير إلى التاريخ السياسي والأدبي، فتحقيق المخطوطات،فالبلاغة العربية ونظرية النظم؛ وبعبارة أوضح وأكثر تفصيلا هي دراسة لأمرين اثنين: أولهما حياة عبد القاهر الجرجاني العلمية وخلفياته الفكرية ومخلفاته العلمية بإطارها الفكري والاجتماعي بل وحتى السياسي، ثانيهما كتاب دلائل الإعجاز من حيث صحة النسبة والهدف والمحتوى والمكانة العلمية، ولولا مخافة تهمة الغرور، ومخالفة أبجديات النشر وما تقتضيه من تحبير، لتركت البحث خلوا من الخاتمة ولدونت مكانها عبارة :اقرأ البحث من أوله إلى آخرة غير مأمور. فهو يقدم فكرة مكتملة عن كتاب الدلائل بعده مؤسسا لنظرية النظم التي ليست سوى علم المعاني الذي هو رأس البلاغة العربية. فجدير بكل من أراد الاقتراب من نظرية النظم والبلاغة العربية وعرينهما دلائل الإعجاز أن يقدم عربون ود بقراءة هذه المقالة.

[1] أحمد حسن صبرة : التفكير الاستعاري ، مكتبة الوادي بدمنهور ، ط ثانية ، 2002م ، ص 107.

[2] مصطفى الصاوي الجويني : البلاغة العربية ، تأصيل جديد، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، د ت ص 72 .

المصادر والمراجع:

[1] عائشة حسين فريد : منهج البحث البلاغي ، دار قباء للطباعة والنشر و التوزيع ، القاهرة ،ط أولى، 1977م.

[2] عبد العاطي غريب علي علام : البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين : عبد القاهر الجرجاني ، وابن سنان الخفاجي ، دار الجليل ،بيروت ، ط أولى ، 1993 .

[3] صالح بلعيد : التراكيب النحوية و سياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الساحة المركزية ، بن عكنون ، الجزائر، سنة 1994.

[4] زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، د ت .

[5] محمد بن شاكر الكتبي : فوات الوفيات والدليل عليها ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د ت ..

[6] إميل بديع يعقوب : المعجم المفصل في اللغويين العرب ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ط أولى ، 1997.

[7] نور الدين محمد دنياجي: التفكير اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني ، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء ، ط أولى 1997.

[8] عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، بحث وتقديم علي أبو زقية ، موفم للنشر ، 1991.

[9] أحمد جمال العمري : المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني ، نشأتها وتطورها حتى القرن الرابع الهجري ، مكتبة الخانجي القاهرة ،1990.

[10] كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب ألعربي ،نقله إلى العربية رمضان عبد التواب ، وراجع الترجمة السيد يعقوب، بكر ، دار المعرفة ، ط ثالثة د ت ، الجزء الخامس.

[12] نور الدين محمد دنياجي : التفكير اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني ، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء ، ط أولى 1997.

[13] جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت، لبنان ، ط ثالثة ، 1978 ، الجزء الأول.

[14] أحمد الاسكندري ، وأحمد أمين ، وعلي الجارم ، وعبد العزيز البشري ، وأحمد ضيف: المفصل في تاريخ الأدب العربي ، الناشر مكتبة الآداب ، القاهرة ، د ت.

[15] إدوارد جرانقبيل براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ، نقله إلى العربية إبراهيم أمين الشواربي ، مكتبة الثقافة الدينية ط أولى ، سنة 2004م.

[16] محمد عبد المنعم خفاجي، محمد السعدي فرهود، عبد العزيز شرف : الأسلوبية ...والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط أولى ، 1992.

[17] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، ط أولى ، 2004.

[18] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ، ط ثالثة ، 1992.

[19] عبد السلام محمد هارون:تحقيق النصوص ونشرها،مكتبة السنة،الدار السلفية لنشر العلم،القاهرة،ط خامسة ، 1994م.

[20] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني ، صحح أصله علاّمتا المعقول المنقول الأستاذ الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية والأستاذ اللغوي المحدث الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي ، علق عليه السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط أولى ، 1994.

[21] عبد الفتاح عثمان في علم المعاني ، دار الهاني للطباعة ، القاهرة ، 1991 .

[22] عبد العزيز عتيق : في البلاغة العربية ، علم البيان ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، 1985.

[23] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط أولى ، 2001م.

[24] أحمد حسن صبرة : التفكير الاستعاري ، مكتبة الوادي بدمنهور ، ط ثانية ، 2002م.

[25] مصطفى الصاوي الجويني : البلاغة العربية ، تأصيل جديد، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، د ت.